

آخر سوى الفرق بن زيه وزى أبيه والأزعات النفسية فيهما. أما المعارف
والعلوم فهو منها خالي الوفاض بأدي الانتقاض قد نسي تلكم القشور التي
قد حصلها منها.

فشل هذا سيمود من أوروبا وقد قطع آخر خيط يربطه ببلاده كلها
لا سيما إذا عاد ويده شهادة. وأي خير يرجى من مثله لبلاده؟ وأين هذا
الشاب المسكين المفروء بنفسه من شاب تعلم في مدرسة صبغت بصفة
وطنية كمدرسة المعلمين الناصرية مثلا وأتم الدراسة فيها ثم سافر إلى أوروبا؟

الخيال في الشعب العربي

٢

التخييل التحضيري

تداعى المماني بوسية التذكر للأسباب التي كنا بصدد البحث عنها، ثم
الخيلة تنتخب منها ما يناسب الغرض، وهذا العمل اعني الانتخاب يسميه علماء
النفس تخيلا تحضيريا لانه العمل الذي تتمكن به الخيلة من استحضار العناصر
المناسبة للرام

تقتصر الخيلة عند الانتخاب على ما يدعو اليه الغرض حتى انها تأخذ الجسم
مقطوعا من بعض الاعضاء التي لا يدخل لها في المعنى فتصور الجواد بغير
قوائم كما قال المتنبي

اتوك يجررون الحديد كأنما اتوا بجياد ما هن قوائم

والمقرب بغير ذنب كما قال ابو هلال

تبدو الثريا وأسر الذيل مجتمع كأنها عقرب مقطوعة الذنب

وربما انتزعت المفضو من بين سائر الجسم كما أخذ ابن هاني اليد فقال

ولاحت نجوم لانريا كأنها خواتيم تبدو في بنان يد تخفى
 وأخذ ابن الممتر القدم فقال
 وارى الثريا في السماء كأنها قدم تبدت من ثياب حداد
 واخذ آخر القلب فقال
 نقل الجبال الرواسي من موطنها أخف من رد قلب حين ينصرف

التخييل الابداعي

بعد أن تنتخب الخيلة ما يليق بالفرض من العناصر تتصرف فيها بالتأليف الى أن ينتظم منها صورة مستطرفة، ويسمى هذا التصرف تخيلا ابداعيا أو اختراعيا ويجري هذا التخييل في التشبيه والاستمارة وغيرها فالتشبيه قد تحذف اداته كما في قول النابغة

فانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم يبد منها كوكب
 وعمل الخيال فيه هو احضار صورة المشبه به أعني الشمس والكواكب والغاء وجوه التباين بينها وبين المشبه أعني المدوح وبقية الملوك حتى يدعى اتحادهما ويصح الاخبار بأحدهما عن الآخر، وبني على هذا الادعاء أن ليس للملوك مظهر ولا تقوم لهم امام هذا الملك سمة فان الكواكب يتقاص ضوءها وينرب عن الميرون مشهدها عند ما تتجلى الشمس في طلعتها الباهرة
 واما ما تذكر فيه اداة التشبيه فلا استطيع أن أعده في قبيل الخيال جملة كما اني لأعزله عنه في كل حال، فان كان فيه اخراج المقول في صورة المحسوس او المحسوس في صورة المقول أو اخراج الخفي الى ما يعرف بالبدهة أو اخراج الضميف في الوصف الى ما هو أقوى فيه فتصح اضافته الى الخيال اذ له الأثر القوي في تقريره

وأما عقد المشابهة بين أمرين متفقين في وجه الشبه من غير تفاوت بالتشبيه الذي يساق لبيان الاتحاد في الجنس أو اللون أو المقدار أو الخاصية فلا يصح نسبه الى الخيال الشعري وان وقع في كلام مقفى وانما هو مما ينظر فيه الباحث عن الحقائق كانه فيلسوف أو الطبيب

فلا اتفق ان وقف قتي بجانب نبي وانطلقا في فسيح من الارض ولم يفث أحدهما صاحبه قيد شرب فبدا لك أن تتحدثت عنهما فقلت ولوني نظم « كان فلان

في سرعة عدوه كالغزال « لم يكن في هذا التشبيه شيء من الخيال لان عقد المشابهة بينهما في هذا الحال يشارك فيه كل من شاهد الواقعة ، وانما يمتاز التخييل بمثل قول الشاعر

وفي الهيجاء ماجربت تسمى ولكن في الهزيمة كالغزال
حيث ان الخيال يبحث عن صورة المشبه به وهو الغزال وانتقاها من بين
سائر الصور المترابكة في المحافظة ثم تصور انطلاق المنهزم وهو الشاعر نفسه
وبالغ في مقدار سرعته الى أن وقع التشابه بينه وبين الغزال
وان أردت أن تفرق بين التشبيه الذي يدخل في التخييل والتشبيه الذي هو
حائذ عن طريقته فانظر الى قول الجنون

كأن القلب ليلة قيل ينفدى بيلى الصامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت تماجله وقد علق الجناح
فترى الخيال هنا قد تجول حتى تصيد معنى القطاة ووقع على الشرك ثم انتزع
منها هذه الممانى وهي وقوع القطاة في الشرك وعلق جناحها به ومما جلبها له كي
تتخلص منه وضم بمضها الى بعض فانتظم ذلك المعنى المركب وانصقت المشابهة
بينه وبين حال القلب الذي وقع في حب الصامرية فاخذ يرتجف وجل من لوعة الفراق
ولو نظر شاعر الى ازهار مفتحة بمكان منخفض من الارض وقال مثلاً
هذه الازهار في بنظرها وشذاها مثل ازهار الربا
لاستبردت شمره لا ول وهلة وأخذت تهزأ به كما هزأت بقول الآخر
كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

بيد أن ذلك التشبيه نفسه لو صدر من العالم بالنبات في الرد على من يدعى ان هذه
الازهار ليس لها لون ولا تفحات عطرة كالازهار التي تنبت على الربا لاصفيتها اليه
سمنك وتلقيته منه بكل وقار. وما ذاك الا لان الاول قاله بوصف كونه شاعراً
ولم يأت فيه على عادة الشعراء بشيء من التخييل وأما الثاني فانما القاه اليك
في صدد البحث عن الحقيقة فلا تنتظر منه أن يصله شيء من عمل الخيال
والاستمارة يصنع فيها الخيال ما يصنع في التشبيه المجرد من الاداة الا أنها
تمرض عليك المشبه في صورة المشبه به على وجه أبلغ ولا سيما اذا صيف اليها
بعض معان عهد اختصاصها بنوع المشبه به أعني ما يسميه البيانون ترشيحاً ،
ومن أبدع مانسج على منوالها قول البارودي

من النفر الفر الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية جحر
 اذا استل منهم سيد غرب سيفه تفرعت الافلاك والتفت الدهر
 اراد الشاعر وصف قومه بأنهم أولو الصرامة التي تفرج الكرب المدهمة
 والسطوة التي يرهبا كل خطير فساق اليك هذا الغرض في صورة تنظر منها الى
 سيوفهم كيف تجرد حول الليلة الفاحمة فيسطع الفجر الواضح في جوانبها، وترى
 فيها الحسام الواحد كيف يسلم من جفنه فترعد الافلاك ذعراً ويلتفت له الدهر
 خذراً خيل اليك أن الداهية ليلة ظلماء، وأن الفرج الذي ينبعث من مطلع
 سيوفهم صبيحة غراء، وعبر عن الأولى باسم الداجية وعن الثانية باسم الفجر وهذا
 التعبير المألوف الى ذلك التخييل هو الذي يعنيه البيانون بقولهم استمارة مصرحة
 ثم خيل الملك في صورة من له قلب يفرغ والدهر في صورة من له وجه
 يلتفت، والتصرح باسمهما بعد هذا التخييل يدخل به الكلام فيما يطلقون عليه
 لقب الاستمارة بالكناية، ويمكنك أن تفهم الفجر في البيت بمعنى لمعان السيوف
 وتألقها المشاهد بالابصار على نمط قول بشر

سللت له الحسام نخلت أني شققت به لدى الظلماء جحرا

ولكنك تضيف من يدك ما أفاده الوجه الاول من أن النجدة في جانبها،
 والنظر مقرون بطالهما، إذ لا يلزم من لعلها في حواشي الداجية أن تلعب في
 لبتها وتقلبها بالفوز عليها الى صبيحة مسفرة (١)

(المنار) هذان البيتان من قصيدة للبارودي بمرض بها رائية أبي فراس
 المشهورة «أراك عصي الدمع شيمتك الصبر» وقد أشرنا اليها في ترجمته من مجلد
 المنار السابع وذكرت البيتين وعلفت عليهما بمباراة لا بأس بذكرها هنا لانها في
 الاشارة الى ما فيهما من الخيال وهي :

ويانته ما أرق حاشية قوله «لها في حواشي كل داجية جحر» وما أدق غزل خياله
 فيه . وأما البيت الثاني فانه ليكاد يروع يلاغته السامع حتى يخيل اليه أن الأفلاك
 تصدعت مما تفرعت فيلمس رأسه مخافة أن يصيبه كصف منها ويتمثل له الدهر رجلاً
 فجئه المعجب ، فالتفت الى السبب، وليكاد يلقه ما يتخيل من التفات الدهر ، ويظن
 به الدهش والذعر، او يذهب به الوهم الى ان التفات الدهر هو التفات أهله
 فيحسب كل فرد من الناس قد ألوى عنقه وشخص ببصره منب يسر ما يكون
 من فعل ذلك السيف المبتل، في يد ذلك البهمة الامثل ، وجملة ما يقال في البيتين
 السحر الذي ياخذ المرء عن نفسه، ويحكم سلطان الخيال في عقله وحسه .

ومن التخيل الذي لا يدخل له الشاعر من طريق تشبيه أو مجاز ما تشهد
لصاحبه بالحدق في الصناعة وأنت تشعر بأنه عرض عليك الموهوم في حلية
المقول كقول الطائي

ولا بروعك إيماض القتير به فان ذلك ابتسام الرأي والادب
أخبر عن الشيب بأنه ابتسام الرأي والادب اللذين هما محبوبان ومحترمان
لكل أحد ابتغاه ان تأنس المين رأيتيه ولا تنظر اليه نظر الازدراء به، وليس
هذا من قبيل التشبيه اذ لم يكن للرأي والادب ابتسام يعهده السامع حتى
يقصد الشاعر الى تشبيه الشيب به بل أراد ان يخيل لك أن الشيب ابتسام في
الواقع ولهذا تجدد في نفسك ما يناجيك بان صورة هذا المعنى غير مطابقة للحق
وان استحكم تأليفها ودق مأخذها

ومنه ما يستلحه الذوق ويسمه نظر المحقق ونجد هذا في قول زهير
لو نال حي من الدنيا بمكرمة أفق السماء لئالت كفه الافقا
فهذا البيت لم ينسج على منوال تشبيه أو مجاز، وليس لك أن تطرحه من حساب
التخيلات المقبولة، وبلوغ كف الممدوح الافق لا يتفق مع النظر الصحيح
غير أن تمليقه على حصوله لانسان من قبل وايراده عقب حرف الشرط الدال
على امتناعه قد خلصه من زلة الكذب وجعله في منعة من أن ينسذه العقل
الى القضايا الوهمية

فنون الخيال

يتصرف الخيال في المواد التي يستخلصها من المحافظة على وجوه شتى، ولا
يسع المقام استيعابها وتقصي آثارها فنلم لك بمهمات ما يصلح أن يكون بمنزلة
أصل تنفرع عليه تفاصيلها

أحدها تكثير القليل كقول عمرو بن كلثوم

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر فغلا سفيننا

فإنه اضرد في حلية الفخر حتى وصل الى التعبير عن منعة الجانب، والسطوة
التي لا يفوتها هارب، فخطر له أن يثبت له ولقومه من القوة ووسائل الفوز
ما يرهبون به عدوهم فذكر أنهم ملأوا البر جندا حتى لم يبق فيه متسع ويملاون
ظهر البحر بالمنفآت من السفن ليندل بهذا على أنهم لا يبالون بالعدو من أي

ناحية هجوم ولا يتعاصى عليهم ادراكه في أي موطن ضرب بخيامه
والذي صنع خيال الشاعر في هذا البيت انه تجاوز في الاخبار بكثرة قبيلته
وسفنه حد الحقيقة وتطوحت به نشوة الفخر الى أن تخيل ان البر قد غص كما
تغص الشكنة بمجنودهم وان البحر يتموج بسفهم كوج السماء المصحبة
بكواكبها الزاهرة

ومنها — تكبير الصغير كقول بشر يصف وقعة الاسد حين قسه بالضربة
القاضية على شطرين

فخر مضر جا بدم كاني هدمت به بناء مشمخرا
فقد تخيل عند ما سقط الاسد الى الارض دفعة انه أتى الى بناء شامخ ونمضه
من أساسه فانقضت أعاليه على أسافله ، فالخيال هو الذي بلغ بجثة الاسد الى أن
جعلها في العظم بمقدار بناء ارتفعت شرفاته حتى اتخذت من السحب أطواقا
ومنها — تصغير الكبير كقول المتنبي

كفى بجسمي نحو لا أنبي رجل لولا مخالفتي اياك لم ترني
وقوله ولوقلم أقيت في شق رأسه وخط به ما غير الخط كاتب
فالسب وان قلب على فراش الهجر أمدا طويلا وأكل الوجد من لحمه حتى
شبع وشرب من دمه حتى ارتوى لا يسئل في مخافة الجسم الى أن يسعه شق رأس
القلم أو يخفى عن عين الناظر اليه وان كانت عشواء وانما هو الخيال أخذ يستصغر
ذلك الجسم حتى ادعى في البيت الاول ان مخالفته للناس هي التي تهديهم الى مكانه
فيصرونه، ولولا ما لبتي محجوبا عن أبصارهم وان وقف قبالتهم، وادعى في البيت
الثاني أنه لو وقع في شق البراعة وانطلقت به اليد في الكتابة لاستمر الخط بحاله
ومنها — جعل الموجود بمنزلة الممدوم كقول المتنبي

ومطالب فيها الهلاك أتيتها ثبت الجنان كاني لم آتها
وصف نفسه بالاقدام على مواقع الردى واقتحام الاخطار بجنان ثابت وعزم
لا يتزلزل حتى تخيل لقلة المبالاة بها وعدم الفرع للمتهاها انه لم يكن قد خاض
غمارها، وراها كيف تنشب أظفارها، وانما نشأ هذا الخيال من جهة أن المطلوب
المدحمة لا يسلم من روعتها والدهشة لوقعتها في مجرى العادة الامن حاد عن ساحتها،
وجذب عنانه عن السير في ناحيتها،
ومنها — تصوير الامر بصورة حقيقة أخرى ، ولها في هذا المقام أربعة

أحواياها (تخييل الحسوس في صورة الحسوس كما في قول زهير
بحرور البرود وقد تمت حيا الكناس فيهم والنساء
نساء من أسيرت مقاتلهم ولم تهرق دماء

فهذا الشعر يصور لك من دارت نشوة السكر والنساء برؤسهم، فأجهزت على
البقية من شعورهم، في صورة قتلى لم تهرق دماؤهم، بل زهقت نفوسهم بمثل خنق
أوسقاء سم دب ديب الحر في مفاصلهم

(ثانيها) تخييل المقول في صورة المحسوس كما في قول الشاعر

مرت على المروءة وهي تبكي فقلت هلام تنحب الفتاة
فقات كيف لا أبكي وأهلي جميعاً دون خلق الله ماتوا
تصور المروءة في زي فتاة فتسنى له أن يسند إليها البكاء ويصدق بينه وبينها
هذه المحاورة

(ثالثها) تخييل المقول في معنى المقول وهذا كمن تخيل المذلة في معنى الكفر فقال

أمطري لؤلؤا جبال مرنديب وفيضي أجيال تكرور تبرا
منزلي منزل الكرام ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا
(رابعها) تخييل المحسوس في صورة المقول، وهذا لم نمره على مثال في كلام

العرب ولكن التشبيه الذي هو أساس هذا الفن قد جرى في كلام المرسلين بإيراد
المحسوس في معرض المقول كقول التنوخي

فأهض بنار الی فحم كأنهما في المين ظلم وانصاف قد انقما
وقول الفاروق

تمر مع الاتراب بالحيف من منى مرور الماني في مغاوز أفكارى
وقد يمد الشاعر الى بعض الماني وينفيه عن أفراد اليهودة و يشبه لأفراد مفهوم
آخر وتجهد هذا في قول بعضهم

ليس من مات فاصراع بميت انما الميت ميت الاحياء
انما الميت من يعيش كثيرا كاسفا باله قليل الرجاء
فقد نفي أن يكون من قضى نحبه ميتا وأطلق اسم الميت هلى من فاضت نفسه

كآبة وضاق صدره بأساء على طريقة القصر بدعوى أن المعنى الذي علق عليه الواضع
اسم الميت إنما يتحقق فيمن يعيش في نكد وبلاء لا يرجو خلاصا منه، والذي أخذ
به إلى هذه الدعوى ما تخيله من أن خواص الراحل إلى القبر وهي مفارقة ما كان يتمتع
به من طيبات الحياة وانقطاع أوله منها ونكد يده من العمل فيها توجد باجمها في
الكثيب اليأس من صفاء العيش بأشد مما توجد فيمن ركبوا هلى مطية الذون لانه
يزيد عليهم في الشقاء بأنه يعلى نار الحسرة والاسف بكرة وعشيا
وقد يكون الامر مر بوطا بملء محققة ظاهرة فيضرب عنها ويخترع له علة من
عنده وتجد هذا في قول أبي العباس الضبي

لا تركن الى الفرا ق فانه مر المذاق
فالشمس عند غروبها تصفر من فرق الفراق

ادعى ان العلة في الاصفرار الذي يبدو على وجه الشمس حين تتدل الى الغروب
وتتطفيء بهرئها إنما هو الوجل والحلم من مفارقة الناس الذين طالعت عليهم ذلك اليوم
حيث اتصت بينهم وبينها فيما يزعم عاطفه ألفة وإيتاس
ومما صنعت على هذا النمط وقد أخذ البرد ينساقط في حديقة

هز النسيم غصون الروض في سحر كما بهز بنات القادة الوتر
لقد (١) الخفيف على اذن السحاب أما تراه يحشو على أدواحها دررا

وقلت وقد أخذت الريح تصف في روض

قام هذا الروض بشدو مادحا بلسان البلب الزاهي سجايا
وتأدى فاليا في مدحه فحمت في وجهه الريح ترابا
وقلت في حال أشجار تراكم عليها التاج ثم ضربت فيها الشمس فاخذت تقاطر عن جوانبها
انسج الغمام لهذه الأشجار من فزل الثلج براقما وجلايا
والشمس تبعث في الضحى بأشعة تسطو على تلك الثياب نواها
فبكت الكشف حجابها أو ما ترى عبرتها بين الغصون سواكبا

وقلت في حمرة الشفق

فقل اللجى هذا النار ودمه تحت التراب مضرجا بدمائه

(المجلد الثاني والثمانون)

(٢٩)

(١١١ - ٣)

فخذوا من الشفق الشهادة أنه لطخ من الدم نال ذيل ردايه (٢).
 ودبما يصاغ التليل في قلب التشبيه كقول أبي تمام
 كأن السحاب الغرقين نحتها حبيبا فلا ترقا لمن مدام
 فلو حذفنا أداة التشبيه هنا لكان الباقي بمنزلة العلة الخيالية لتزول الغيب المتسجم من
 يتابع السحاب، واقترانه بأداة التشبيه يجعله بحيث بسكت عنه العقل ولا يمانعه من أن
 يدخل في سبيل الماني الصادقة.

ومما نظمت على هذا المثال وكان الجو يتدفع وقت السحر بنثار من الثلج
 تطاول هذا الليل والجو مزبد فضاقت بأواج الثلوج مسالكه
 كأنني أذيب الصبح بالحدق التي يقلبها وجدي وتلك صباثكه
 وقد بقر الشاعر معنى ثم يقابله بأمر أوضح منه عند المخاطب دون أن يصرح
 فيه بأداة تشبيه بل تكون مصدرة بأداة استفهام كقول مسكين الدارمي
 وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح
 أو بأداة التوكيد فقط كقول أبي العتاهية
 ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس
 أو تقرن أداة التوكيد بالفاء كقول بشار
 فلا نجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي قوة للقوادم
 أو بالفاء وحدها كقول بعضهم

لا تحسبوا أن رقصي بينكم طرب فالطير برقص مذبوحا من الألم
 ولنوجه البحث إلى معنى البيت الأول ثم لا يشبهه طريك بعد تحرير الغرض منه
 إن بقية الآيات جارية بمعنى التمثيل، أو ذاهبة مذهب الاستدلال والتعابيل
 صدر الدارمي البيت بجمل ابن عم المرء بمكان الجناح له، والشطر الثاني ينفي
 عن البازي أن ينهض بغير جناح ومعنى الشطرين لا يتشتم إلا بملاحظة جملة مطوية
 ما بين الصدر والمجز لم يفصح عنها الشاعر بسهولة مأخذها وبعد ملاحظة تلك الجملة
 يكون مفاد البيت أن ابن عم المرء بمنزلة جناحه فلا يقدر أن يقوم بأعباء الحياة أو يدرك
 فيها هاية شريفة إلا بماضته كما أن البازي لا ينهض إلى الطيران إلا إذا ساعده

بجناحه والقصد تمثيل حاجة الانسان الى ابن عمه نعمة جنة البازي الى جناحه وليس القصد الاستدلال حتى يتحقق يبيت أي تمام المسوق فيما سلف للاستشهاد على التخييل الذي يراد منه المحادعة وقول الدماميني

فلا تعجبوا يوماً لكسر جفونها فان اثناء الحمر في الشرع يكسر
فلا اسلوب في نفسه وارد في الفرضين غير ان فخوى الكلام ومجرى الخطاب
وطبيعة المعنى تصرفك الى التمثيل، أو تأخذ بك الى الاستدلال والتعليل
وقد يعمد الى أمرين يعدهما الناس بشدة التباين وغاية الاختلاف فيمقد
بينهما تشابهاً وتجد هذا في قول المرعي

وشبيه صوت النمي اذا قيد من بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة ام غنة منت على غضن دوحها المياد

فالمهود ان النفس ترتاع لصوت النمي وتتفلتر حزناً، وترتاح لصوت البشير
وتأنس له طرباً، ولكن الحكيم يفرض في اعماق الحوادث، وينظر الى ما تصير
اليه من المواقب، فيتراهي له ان ليس في الحياة ما يدعوا الى لذة، او يستثير النفس
الى جزع، فتكون نعمة البشير وصيحة الناعي في أذنه سواء، ولا يرى فارقا
ما بين النواح والحداء (له بقية)

٥- باب الاخبار التاريخية والآراء

تفرق العرب واختلافهم في جزيرة

كان لما كتبناه في الجزئين الاخيرين بشأن العرب وجزيرتهم استحضار عظيم
عند أولي الرأي والنيرة من قراء المنار ومثله ما كتبناه في المجلد الحادي والمشرين
في مسألة الخلاف بين الحجاز ونجد - تبين لنا ذلك من حديث من كلمنا في هذه
المسألة في سورة اذ كنا فيها عند نشر ذلك ثم من كلمنا في معر في هذا وذلك
وأكبر معائب العرب بأئمتهم وأمرائهم انهم قد ازدادوا تفرقا وتماديا
وعندانا وتقائلا بقدر اشتداد الحاجة الى الاتساق والتواد والتعاون فيما بينهم،
وقد رأينا في جريدة القبلة المكية التي هي لسان حكومة الحجاز ورأيها مقابلا
في التعادي والتقاتل بين العرب السموديين ومن يتصل بهم من عرب نجد